اذنيها ، وزجاجة من عطر قوي ، وصرة بيضاء مصرورة على مـا يسره الله له مـن نقود »(٤٧) .

يموت العماني ، فنكتشف الحقيقة : ان ما كان خيالا كان صورة رومنطيقية للحياة ، اذ أن حياة العماني في الواقع اكثر قسوة . فهو يقيم في الكويت بعيدا عن وطنـه واطفاله الخمسة ، بينما يتخيله الراوي رجلا غادر بلاده ليجمع المال ، وليرجع غنيا كي يستحوذ على حبيبته . غير ان ما كان في الصنـدوق سوى : « مجموعة فوانـير بديون الدكان الجديدة للمخازن الموردة تملأ انحاءه ، وكانت في الطرف صورة قديمـة لوجه مليح ، وجلد ساعة قديم ، وخيط من القنب ، وشمعة صغيرة ، وبضع روبيات منثورة بين الاوراق »(٤٨) .

وهكذا لم يحتو الصندوق على « قيمة » ثمينة ، وانما على قيم لحياة الفقر والمنفى الشاقة . الصورة الفنية هنا تتمثـل في **المحتوى المزدوج للصندوق** : ان الصنـدوق الخيالي يتضمن محتوى ذا طابع مثالي « مجمل » ، ومفعم بالاوهام ، بينما الصندوق الحقيقي يحتوي على اشياء حزينة للحياة يذوق الفقير مرارتهـا . من هنا ، القيـم الوهمية مثل العباءة الجميلة تفقد « قيمتها » ، بينما الاشياء الصغيرة التي « لا معنى لها » تستمد قيمة انسانية عظيمة .

اثار الراوي الذي هو مريض ايضا مسألـة موت الانسان : فهو يرى ان حيـاة الشقاء والالم ، ذات المحتوى المحدد ، لا تترك سوى آثار عديمة الجدوى كالفواتـير والشموع . وهذا ما يفكر به : « ان قضية الموت ليست على الاطلاق قضية الميت ، انها قضية الباقين .. ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة البدايـة . يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت »(٤٩) .

ما هو سبب اعطاء موضوعة الموت تفسيرا فلسفيا ؟ مـا هي علاقتها مع دافـع الحياة الوهمية والحياة الحقيقية ؟ الصورة هي صورة **الموت الكاشف عن سر الحياة** ، تسامي مشكلة المنفى ، وموت الشعب الفلسطيني الذي كان يحتضر غداة النكبـة . نقول « تسامي » ، لان المشكل المثار يبقى مركزا في صدمة موت « عديم الاهميـة » ، ولا يتطرق حقيقة الى ما يكشفه هذا الموت . فكان الموت لازمـا لمعرفة الحقيقة التي كانت فيما مضى « لا معنى لها » . لقد اعطى الموت في هذه القصة معنى لما لم يستطع الراوي معرفته سابقا . فهل من اللازم ان ننتظر الموت دائما لمعرفة الحياة ؟ اذا طبقنا هذه الفكرة على مصير الشعب الفلسطيني نقراها هكذا : يجب ان نفهم حقيقة الشعب الفلسطيني قبل ان يموت . ومع هذا فلم تطرح هذه المسألة عند غسان كنفاني بشكل واضح الا في وقت لاحق ، اذ لا تحمل سوى طابعها الفلسفي : « يجب ان ينطلق كـل تفكير من نقطة الموت »(٥٠) .

أما القصة الاخيرة التي اخترناها من هذه المجموعة فهي تبرز جانبا هامشيا مـن القصة السابقة . وكما قلنا سابقا ، ان الراوي المريض قـد صنع لنفسه صـورة رومنطيقية للمنفى كالسعي الشره وراء ثروة . وقد تطورت هذه الصورة في قصـة « لؤلؤ في الطريق » لتأخذ أبعاد **اللؤلؤة التي في المحارة الاخيرة** . انها حكاية رجل شد الرحيل الى الكويت طامعا الحصول على ثروة ، لكنه يفشل . وقبل ان يعود الى بلاده يجرب حظه للمرة الاخيرة بشراء بعض المحار ، دفع ثمنا لها ما كان عليه ان يدفعـه للحصول على تذكرة السفر الـذي وهبه اياه صديقه ، آمـلا ان يجد فيها أحـدى اللآلىء . يأخذ في فتحها دون فائدة ، وقبل ان يفتح المحـارة الاخـيرة يسقط ميتا . ويتساءل صديقه راوي الحكاية : « لماذا مات ..؟ هل كان ثمة لؤلؤة في داخل تلـك